مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية
المجلد (١٦) العدد (٩) أيلول (٢٠٠٩)

الزهريات في شعر ابن الرومي

مصطفى رعد أحمد
مديرية تربية كركوك

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فقد نعمت الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي بالشئ الكثير من العظمة والازدهار وفي مجالات الحياة كافة،وخاصة في مجال الشعر إذ كان للشعر مكانة عظيمة في نفوس خلفاء الدولة العباسية،إضافة إلى رغبة الشعراء في التطلّع إلى الشهرة، ولقد حفظت لنا كتب التراجم كثيرا من سير الشعراء وغفلت عن بعضهم،فمن بين هؤلاء الشعراء الذين لم تهتم بهم كتب التراجم الشاعر الكبير ابن الرومي،فربّما كان إغفالاً مقصودا منهم له وربما حصل ذلك من غير قصد، إذ ترجمت تلك المصادر لشعراء دون مستوى ابن الرومي، وربما لا يقاس شعرهم بشعره، لما يملكه من طول نفس وقوة في التشخيص والفلسفة العالية، وقد وقع اختياري على دراسة جزء من شعر ابن الرومي فكان بعنوان (الزهديات في شعر ابن الرومي) تحدثت أولا بموجز عن حياته ثم تطرّقتُ بعد ذلك إلى ذكر شيء عن الأزهار وماكان لها من دور في أشعاره إضافة إلى ذلك تطرقنا إلى بيان السمات الفنية واستخدامه للأساليب البلاغية

حياته:

لم يلقَ شاعرُ من شعراء العربية مالقيه ابن الرومي من إغفالها كثير من كتب الأدب، فقد اجمع الكثير من الباحثين على أن هذا الرجل هو علي بن العباس جُريج المكنى بأبي الحسن، والمعروف بابن الرومي،ولد في بغداد سنة ٢٢١هـ من أبٍ رومي[١] وقد أشار إلى نسبهِ في شعره مفتخراً بنسبه الرومي من جهة الأب قائلاً[٢]:

ونحن بنو اليونان من قوم لنا حجىً

ومجدٌ وعيدانٌ أصلاب المعاجم.

أمَا أمُه فلم تكن روميةً بل كانت فارسيةً.فقد افتخر بأصوله من الروم وافتخر بأخواله الفرس. ومن ذلك قوله يفتخر بنسبه[٣]:

كيف أغضى على الدنيَّةِ والفـر

س أخوالي والـروم هم أعمامي.

ويبدو أنَّ أول من أسلم من آبائه أبوه العباس، وقد نشأ على الولاء بن جعفر بن المنصور العباسي.

صفاتـــه:

كان ابن الرومي صغير الرأس مُستدير أعلاه، أبيض الوجه ويخالط لونه شحوب في بعض الأحيان متغير، كث اللحية أصلع، بادر إليه الصلع والشيب في شبابه وأدركته الشيخوخة الباكرة فاعتلَّتْ صحَّتُه وضعف نظرهُ وسمعه[٤]. وكان غريب الأطوار سوادي المزاج انطوائي النفس كثير التطّيرِ والظنَّ والقلق ضعيف الأعصاب، وكان يعتقد بالسحر والشعوذة والفال وغير ذلك، لأنَّ هذه الاعتقادات كانت سائدةً في مجتمع الشاعر، فكان الناس يؤمنون بالسعد والنحس،وأصبح مذهب الشك هو السائد في ذلك المجتمع المضطرب القلق[٥]. ومن أهم الصفات التي تميز بها ابن الرومي أنَّهُ كان نهماً في الأكل نهماً شديداً[٦].

وفاته:

يبدو من خلال مراجعتي لسيرته أنَّ سوء الحظ لزم ابن الرومي بعد موته كما لزمه في حياته، وهناك قصة تزعم أنَّ الوزير المعتمد القاسم بن عبد الله دَسَّ له السم في الطعام وكان سبب وفاته سنة ٢٨٣هـ[٧]. وأغلب الظنَّ إنَّها قصة غير صحيحة،وأنَّهُ مات ميتةً طبيعية نتيجةً لإمراض وعلل، وقد ذكر أبو حيان التوحيدي عن أحد الرواة قوله[٨]:دخلنا على ابن الرومي في مرضه فأنشدنا قائلا[٩]:

ولقـــد سَـــئمتُ مـــأربي فكـــان طيبهـــا خبيـــثُ
إلاَّ الحـــــديث فإنَّـــــهُ مثـــل اســـمه أبـــداً حـــديثُ

الزهر:

أولاً: لغة:

زَهْرةُ، الدنيا، بالتسكين: غضارتها وحسنها. وزهر النبات: نوره وكذلك الزَّهَرة بالتحريك[١٠].

والزهور: نور كل نبات، والجمع زهر وخص بعضهم الأبيض[١١].

ثانياً: اصطلاحاً:

هي نوع من النباتات ينتشرُ انتشاراً واسعاً في المناطق التي تكون غزيرة المياه وتتنوع أشكالها وتتعدد ألوانها وتختلف عطورها.

الأزهار:

كثرت في العصر العباسي القصور والحدائق المليئة بالأزهار، وانتشار الرياض والبساتين، جعلت صور الشعراء موشحةً بالرياض، والازهار مثل النرجس والبنفسج والنوار وغيرها.

ولعل زهرة النرجس تأتي في مقدمة الزهور التي افتتن في وصفها الشعراء فقد كثرت استعارة النرجس للعين، يقول ابن الرومي[١٢]:

وأحسنُ مافي الوجه العيون وأشبه شيء بها النرجس
يظل يلاحظ وجه النديم فرداً وحيداً فيستأنس

ولزهرة النرجس وقع في نفس الشاعر فنلاحظه يذكر ويصف بها أشياء جميلة، فمرةً يصفها بالعيون، ومرةً يصفها بيد فتاة غَضَّة كقوله[١٣]:

أبصرتُ باقةَ نرجسٍ في كفٍ من أهواهُ غضَّهْ
فكأنَّها قصبُ الزُمَّردِ أنبتتْ ذهباً وفضهْ

ويقول ابن الرومي موظفاً جمال زهرة النرجس بوصف أسنان الحبيبة[١٤]:

ونرجسٍ كالثغورُ مُتَبسِّمٍ له دموع المحدق الشاكي
أبكاهُ قطر الندى وأضحَكه فهو مع القطر ضاحكٌ باكي

فالشاعر في هذين البيتين يعمد إلى رسم صورة شعرية كأنَّها أسنان الحبيبة أو بياض أوراق النرجس كأنَّهن دموع محدق يشكو من الفراق، ويورد في البيت الثاني نوعين من الطباق: ألأول طباق بالفعل (أبكاه وأضحكه) والثاني طباق بالاسم (ضاحك وباكي) إن وصف الطبيعة اقترن مع التصوير وعنصر التشخيص الأمر الذي أدى إلى تمييز الصورة، فالشاعر قد أعطى شجيرات النرجس صفات إنسانية.

الرياحين والأقحوان:

هذان النوعان يُعدان من رموز الطبيعة المتحضر،وهما من النباتات المحببة الى النفوس، ولهما دلالة جمالية كبرى، وقد كثر ذكرهما في الشعر العباسي ويُعد ابن الرومي من الشعراء الذين تناولوا هذه النباتات في شعرهم لتأثره بهذا النوع من الزهور لكونه يمتاز برائحته الذكية. يقول ابن الرومي[١٥]:

ياحبذا نفحة من ريحه سَحَراً

تأتيك فيها من الريحان أنباء.

ويقولُ أيضاً[١٦]:

سلام وريحان وروح ورحمة

عليك وممدود من الظل سجيـع

عمد الشاعر إلى استخدام عنصر التجسيم الذي أحسن فيه وادخله في فن الرثاء فسلام وريحان هي راحة للقلب لما بعده من ظل ممدود ووفير. ومن الأزهار التي ورد ذكرها في شعر ابن الرومي الأقحوان،نبات لونه أبيض وذكي الرائحة، قال ابن الرومي يهنئ عبد الله بن عبد الله بالمهرجان ونراه قد فَضَّل محاسن الأمير على الربيع والأقحوان[١٧]:

فلذكر الأمير أحببت نشراً

من خزامى الربيع والأقحوان

ويقول ابن الرومي يرثي احد أصدقائه ويجعل قبر المرثي بركة ماء وقد أحاطه بالأقحوان[١٨]:

ولابرح القاع الذي أنت جاره

يرف عليه الأقحوان المفلج

دلالة على كثرة الباكين حول المرثي، فحوله الأقحوان المفلج –يعني الأبيض– تنهال عليه هذه الأوراق من زهر الأقحوان كما تتساقط الدموع على الخدود فهو وصف أجاد فيه وأبدع.

الملامح البَيانية:

أولاً: التشبيه

التشبيهُ لغة:- (التمثيل و(أشبه) فلاناً و(شابهه) و(اشتبه) عليه الشيء و(الشَّبهُ) و(الشَّبْه) ضربٌ من النُّحاس)[١٩].

اصطلاحاً: عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قُصد اشتراكهما في صفة، أو أكثر بأداة لغرض يقصده المتكلم)[٢٠].

لقد كانت لثقافة ابن الرومي ومعرفته بدقائق اللغة العربية وغريبها وعلومها أثرها الواضح في انعكاس ذلك على شعره،وقد اعتمد بذلك على الفنون البلاغية في رسم صوره البارعة، واستطاع إبراز المعاني باستخدام أساليب جديدة بواسطة الخيال والوصف فأجاد بها رسم الصور وإبراز المعاني إذ التشبيهات ومنها يطالعنا في شعره الذي كثر فيه التشبيه مقطوعته في وصف الزهر، يقول ابن الرومي[٢١]:-

نشر آذار في الثرى حللاً ... قد كان كانون قبل طواها
كسى عراء الربا طيالسةً ... خضراءَ وبالعبقري ردَّاها
وصاغ للأرض كل تاج بها ... أحسن في صنعهِ فجلاَّها
أعجب ذاك السماء فانبعثت ... تنثرُ دراً على مُحياها

فجعل هذه الأبيات تؤلف صورة خيالية بديعية،فالتشبيه التمثيلي المحور الأساسي في رسم هذه الصورة فقد أصبحت صورة الأرض بعد ماطواها كانون كأنها تاج موشح أو مزخرف بالدر، وطيالس خضر، فوجه الشبه في هذه اللوحة الشعرية متعدد لايمكن الفصل بينهما، ونلاحظ في هذه المقطوعة استخدامه عنصريّ التشخيص والتصوير، فأعطى الأشياء غير الحية حركة.

ثانياً: الاستعارة

من المعلوم أن التشبيه قائم على طرفين،مشبه ومشبه به، وذلك بذكر المشبه بشيء آخر معروف عنده يشبه عليه، فقد ينبع عن ذلك تركيب جديد يقوم على ذكر طرف واحد فقط، وهذا التركيب يعرف ((بالاستعارة)) وهي: (استعمال اللفظ في غير ماوضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول منه والمعنى المنقول إليه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي)[٢٢]. وكان للاستعارة هي الأخرى نصيبها في شعر ابن الرومي لرسم صور ولوحات بديعية ومن استعارته في شعره يمدح القاسم بن عبد الله يقول[٢٣]:

ياحبذا النرجس ريحانه

لأنف مغبوق ومصبوح

فقد استعار للممدوح بالنرجس بان كلامه له رائحة كرائحة النرجس الذكية فحذف المشبه وأبقى لازمة من لوازمه هي لفظة (أنف) على سبيل الاستعارة التصريحية وعبر بهذه الاستعارة تعبيراً دقيقاً عن قوة تمتع ممدوحه بجمال كلامه. ومن بديع استعاراته في شعره، رثاء ابنه، قال[٢٤]:-

أريحانة العينين والأنف والحشا

إلا ليت شعري تغيرتَ من عهد

فقد استعار الشاعر لفظة ريحانة وحذف المشبه وهو ابنه، فهي استعارة تصريحية فقد حذف من الكلام المشبه وصرح بالمشبه به (ريحانه العينين) وأبقى قرينة لفظية تدل عليه وهي لفظة (ريحانة). فالاستعارة شعرية أصلية.

ثالثاً: الكناية

لقد عرفها الأمام الجرجاني:(أن يريد المتكلم أثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه[٢٥]). فيدل التعبير المجازي على استعمال الكلمة في معنى غير معناها

الذي ارتبطت به واستقر لها في البيئة المعينة، ولايتم هذا الاستعمال ارتجالاً أو عشوائياً بل يبنى على علاقات معينة هي اللازم والملزوم تربط المعنى الأول والثاني إذ الكناية انتقال من ملزوم إلى لازم وبهذا الاعتبار فان المجاز يعد ضرباً من التعبير يؤدي المعنى أداء غير مباشر[٢٦] ومن خلال تصفحنا لشعر ابن الرومي، وجدنا بعض الكنايات التي تدل على قدرة لايستهان بها ومن كناياته في شعره قوله [٢٧]:

أنفاس نوَّار يمج الندى

خلال روض سبط أهلب

فهو يشكو البين ويهجوه فـ(سبط أهلب) كناية عن موصوف هو الفراق حاله من أثره وقال في الغزل[٢٨]:

هي الفتاة إذا اعتلت مفاصلها

بالنوم، واعتلت الأفواه بالسحر.

ففي البيت كناية عن صفة هي راحة الفتاة ونعومتها (اعتلت مفاصلها).

المحسنَات البديعية:

عرفها القز ويني:-(علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بقدر وغاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدَلالة)[٢٩].وتحدث عن ذلك أبو هلال العسكري: (وهذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف وبريء من العيوب،كان في غاية الحسن ونهاية الجودة)[٣٠]. ومن الفنون البديعية التي طرق بابها شاعرنا هي:-

أولاً: الجناس

وهو من الفنون البديعية الذي يقوم على الاشتراك اللفظي،ومعنى ذلك أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في ألفاظ متجانسة مشتقة. ومن الجناس في شعر ابن الرومي قوله[٣١]:- يهجو ابن الحاجب لما دعا ابن الرومي إلى قصره فلما جاء منع من دخول القصر.

نجاك ياأبن الحاجب الحاجب

وأين ينجو مني الهارب

والنقل والريحان من شأنهم

فلا يعيب فقدهما عائب

فنلاحظ ابن الرومي جانس بين لفظتين (الحاجبَ،الحاجبُ) فهو جناس تام إذ توافقت بها الحروف لكن المعنى اختلف،فالحاجب الأول اسم الشخص لكن اللفظة الثانية تعني الشخص الذي يمنع من الدخول على الخليفة أو الوزير يقف على بابه. ومن الجناس اللطيف قوله يمدح صديقاً له:(٣٢)

ولم تسلك الأيام عن زهراتها

بمثل فتى أخلاقه زهرات

قد ورد نوع الجناس تاماً في هذا البيت، فهو متشابه في اللفظ لكن المعنى مختلف فزهرات الأولى يقصد بها الأيام التي مضت وكانت جميلة وسعيدة أما الثانية فالأخلاق الناضجة. مشبه بالزهرات الفَواحة الناضجة.

ثانياً: الطباق

هو الجمع بين المتضادين،أي معنيين متقابلين في الجملة. ومن أدق تعريفاته ماعرفه أبو الهلال العسكري بقوله: (الجمع بين الشيء وضده في الكلام)(٣٣). ومن بديع الطباق في شعر ابن الرومي قوله(٣٤):

فأعرضت حلوة الأعراض مُرّتَه

بزفرة كنسيم الروض ذي الريبِ

فنجده قد طابق بين الألفاظ (حلوه–مره) حتى جعل منها عبارة ذات نغمة موسيقية رفيعة عندما جمع بين لفظتين متضادتين. ومن أمثلة الطباق قوله(٣٥):

أبكاه قطر الندى وأضحكه

فهو مع القطر ضاحك باكي

فنلاحظ إن الطباق قد جاء في الألفاظ (ضاحك- باكي) فألف فيها إيقاع صوتي ذات تأثير في النفوس.

الخاتمة

وهذه خاتمة البحث – الخلاصة تتضمن النتائج النهائية للبحث :

قلت الأخبار عن الشاعر فلم يؤكد عنه في كتب السير والتراجم والتاريخ إلا القليل وقد نسب نفسه من جهة الأب إلى الروم، ومن جهة الأم إلى الفرس، وذكر هذا في شعره، واتصف الشاعر بأوصاف عديدة منها انه كان كثير التطير، ولقد شغف الشاعر بحب الطبيعة ونلاحظ ذلك في شعره،أو نجده في ديوانه قصائد يذكر فيها الأزهار والنرجس وغيرها من الزهور،ويتميز شعره ببراعة التصوير وقوة التعبير، وتميزت ألفاظه بالسهولة والوضوح أحيانا، وقد أورد في شعره أيضا بيانا واضحا لبعض الملامح البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية، وذكر شيئاً من المحسنات البديعية كالجناس والطباق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

هوامش البحث

١- ينظر: مروج الذهب: ١٨٢/٤، تاريخ بغداد: ٢٣/١٢، وفيات الأعيان : ٣٥٨/٣ وسير أعلام النبلاء: ٣٩٥/٣ والأعلام: ٢٩٧/٤.

٢- ديوانه: ٢٢٧٥

٣- ديوانه: ٢٢٧٦

٤- ينظر: ابن الرومي حياته من شعره: ٦٢

٥- ينظر: ابن الرومي الشاعر الوجل: ٢٠

٦- ينظر: المصدر نفسه: ٢٠

٧- ينظر: ترجمته وفيات الأعيان: ٣٥٨/٣

٨- الإمتاع والمؤانسة: ٢٧/١

٩- ديوانه: ٣٩٧

١٠- الصحاح في اللغة،مادة-زهر-

١١- مختار الصحاح: ٢٧٦ مادة (زهر)، لسان العرب-مادة (زهرة)

١٢- ديوانه : ١٢٣٤

١٣- ديوانه: ١٤٢٠

١٤- ديوانه: ١١٨٢

١٥- ديوانه: ٥٥٩

١٦- ديوانه: ٤٩٤

١٧- ديوانه: ١٤٩٤

١٨- ديوانه: ٤٩٤

١٩- مختار الصحاح: ٣٢٨ مادة (شبه)

٢٠- جواهر البلاغة: ٢١٤

٢١- ديوانه: ١٢٥

٢٢- جواهر البلاغة: ٢٦٤

٢٣- ديوانه: ٥٥٩

٢٤- المصدر نفسه: ٢٢٦

٢٥- دلائل الإعجاز: ٧٠

٢٦- ينظر: التعبير البياتي: ١٢٩

٢٧- ديوانه: ٢٩٣

٢٨- ديوانه: ١١١٦

٢٩- الإيضاح في علوم البلاغة: ٣٤٨

٣٠- كتاب الصناعتين: ٢٩٤

٣١- ديوانه: ١٨٢

٣٢- ديوانه: ١٨٤

٣٣- كتاب الصناعتين: ٣١٦

٣٤- ديوانه: ٢٣٥

٣٥- ديوانه: ١٨٩٠

المصادر والمراجع

١- ابن الرومي حياته من شعره: عباس محمود العقاد، دار الكتب العربي، بيروت، ط٧، د-ت.

٢- ابن الرومي الشاعر الوجل : عبد الغني خماس، مطبعة عصام، د-ت، د-ط.

٣- الأعلام خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠

٤- الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي، صححه وطبعه احمد أمين-احمد الزين، منشورات دار الحياة، د-ت

٥- الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين أبو عبد الله بن عبد الرحمن القزويني (ت٧٣٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٦- تاريخ بغداد: أبو بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي(ت٤٦٣هـ)دار الكتب العربي بيروت، د-ت.

٧- التعبير البياني: د-شفيع السيد، شركة الصفا للطباعة، القاهرة ط٢، ١٤٠٢هـ-١٩٨م

٨- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: السيد احمد الهاشمي، أشراف صدقي محمد جميل، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، طهران، ط١، ١٣٧٩هـ.

٩- دلائل الإعجاز : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني(ت٤٧١هـ) تعليق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ط ٢، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

١٠- ديوان ابن الرومي: تحقيق حسين نصار، مركز تحقيق التراث ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

١١- سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي(ت٧٤٨هـ)، تحقيق حسين الأسد-شعيب الارنؤوط، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط٩، ١٩٩٣م.

١٢-الصحاح في اللغة: الجوهري(ت٣٩٣هـ) تحقيق احمد عبد الغفور عطا-دار العلم للملايين القاهرة ط٤، .١٩٨٧

١٣-كتاب الصناعتين: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت٣٩٥هـ) تحقيق د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ط٢، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

١٤- لسان العرب: ابن منظور(ت٧١١هـ)

١٥- مختار الصحاح: أبي بكر الرازي(٦٦٦هـ)

١٦- مروج الذهب ومعادن الجوهر: أبو الحسن علي بن الحسين المسعود (ت٣٤٥هـ) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد/مطبعة السعادة، مصر ط٥، ١٣٠٧-١٩٦٧م.

١٧- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لأبي العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان(ت٦٨١) حققه د.أحسان عباس، دار صادر-بيروت.